

## الإسلام «الداعشي» والعبودية... النساء الأيزيديات مثالا



### إعداد وترجمة ليلى زيدان عبد الخالق

«غنائم الحرب»، هي تسمية أطلقها «دابق»، مجلة تنظيم «داعش» الإرهابي الناطقة باللغة الإنكليزية، في إشارة إلى آلاف النساء الأيزيديات اللواتي أُجبرهن التنظيم على ممارسة العبودية الجنسية بعدما سيطر على جبل سنجار في آب 2014. إنها ليست أبعد من أن تكون حالة شاذة، لأن المجلة تقول إن التعزّي الإجباري سلوك ديني كرسه القرآن، متذّرةً بآية وردت في «سورة النساء»، تفيد بأن الله أباح الزواج إلى حدود أربع زوجات، أو «ما ملكت أيماكم». يقف الليبراليون مشدوهين حيال هذا الموقف في المقال، وفي تفسير كلماته على غرار «المأسورة في المعركة». وقد ركّز هذا المقال على إعادة إحياء أسواق بيع الرق في الإسلام، والإفصاح عن الرغبة في أن تُباع «ميشيل أوباما»، زوجة الرئيس الأميركي، في القادم القريب من الأيام هناك.

وتقول «أم سمية» إحدى النساء «الداعشيات» ممن قابلتهن الصحفية: «أنا ومن معي في البيت، سجدنا لله شكرًا على اليوم الذي دخلت فيه أول جارية إلى بيتنا». وقد فعل المتعاطفون مع «داعش» الأمر عينه، والأبرز الحليفة النيجيرية المتشدّدة، جماعة «يوكو حرام»، التي اختطفت السنة الماضية كل الفتيات في مدرسة «شيبوك».

وكان الدعاة الدينون قد ردّوا بموجة من الاحتجاجات والانتقادات. وجاء في رسالة مفتوحة وجهها 140 من العلماء المسلمين، في وقت سابق من السنة الحالية، إلى أبي بكر البغدادي، زعيم تنظيم «داعش»: «إن إعادة إحياء الرق ممنوع في الإسلام، وتم إلغاؤه بإجماع عالمي». وأضافوا «أنتم اتخذتم من النساء سبيًا، وبهذه الطريقة استأنتم من جديد الفتنة والفساد في الأرض».

بين أزيدنا اليوم تقرير مقتبس من عدّة مصادر، أهمها «The Economist»، و«ديلي ميل»، ويسلط التقرير الضوء أكثر على تاريخ تجارة الرق، وعلاقة بممارسته السني. كما يسلط الضوء على تباهي تنظيم «داعش» الإرهابي بكتبت «The Economist»:

إذا كانت أصابع اللوم موجهة نحو الرق في «داعش»، فإن الزعامات الدينية والسياسية ظلت أكثر تحفظًا حول حالات «شبه عبودية» أخرى، متشكّية في جميع أنحاء المنطقة. ذلك أن استهداف «داعش» طائفة بكاملها بالخطف والقتل والإتجار بالجنس، والمفارقة بذلك، بعد حالة استثنائية. بينما تعتبر الأعمال السلفية، والاستغلال الجنسي وغيرها من أشكال الاستغلال الأخرى، حالات عادية.

تنفضي العبودية في كل مكان. من المغرب، حيث يعمل الآلاف من القاصرات كخادمات في البيوت، إلى مخيمات اللاجئين السوريين في الأردن، حيث تجبر الفتيات على ممارسة الدعارة، إلى الاعتصام غير المشروع وإساءة معاملة الخادمات في الخليج.

اختطف العلماء بشكل لافت إلى أي حدّ يمكن إلقاء اللوم على الأعراف الثقافية. ويقول المؤيدون «إن النبي محمد تساهل مع موضوع الرق تماشيا مع روح العصر»، ولكن العالم الثيولوجي الأميركي البارز، مريض المعاهد الدينية السلفية، ياسر قاضي، يرى أن النبي فعل ذلك على خضوع ثم دعا إلى إلغائه. ويضيف قاضي أن الرسول «دعا في مواضع كثيرة في القرآن إلى تحرير الرق والإفراج عن الأسرى، وسعى إلى تخفيف أنظمت الرق المعتمدة من طرف الإغريق والرومان والبيزنطيين واليهود وملوك حمير في اليمن». ويؤكد قاضي أن النبي محمد قام بتحرير امرأة من السبي، ابنة قائد بارز، بالزواج بها، واختار بلال، وهو عبد آخر كان قد تحرر، لإمامة الأذان للصلاة بعد فتحه مكة. لقد كانت رسالته هي التحرر من الظلم الديني، باعتبار أن العبودية لله، لا للبشر.

ومع ذلك، ثمة علماء آخرون يصرون على أن الطريقة التي يعامل بها تنظيم «داعش» الأيزيديين تتوافق مع التقاليد الإسلامية. ويقول البروفيسور «إيهود توليدانو»، أحد أبرز المتخصصين في الرق في الإسلام في جامعة «تل أبيب»: «إنهم في امتثال تام لتفسير القرآن في مراحله المبكرة». ويضيف أن «ما أباحه النبي لا يمكن للمسلمين أن يمتنعوا»، وأن «دعوات الرسول للإفراج عن الرقيق شكلت حافزًا للبحث عن نسل جديد، مع انتشار الإمبراطورية الجديدة، المدعومة بالتجارة، من جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا إلى الخليج الفارسي».

وكان الخلفاء العباسيون قد قاموا بتجنيد الرقيق الأتراك في جيوشهم من أجل سحق ثورة الزنج في مناجم الملح جنوب العراق. ولم يلبث هؤلاء أن استطاعوا في غضون بضعة أجيال تشكيل أساس السلطة، وذلك في الفترة الممتدة بين 1250 و1517 حين حكم المماليك مصر، وهم طبقة كاملة من الرقيق.

### الطريق إلى السلطة

أكمل خلفاؤهم، الأتراك العثمانيين، هذا النظام على أتمّ وجه. فبعد احتلالهم لجنوب شرق أوروبا في أواخر القرن الرابع عشر، فرضوا الجزية، واستعبدوا الأطفال الفقراء في المناطق الريفية، باعتبار أنهم كانوا أكثر وثنيّة من المسيحيين، وبالتالي لا يخضعون للحماية التي يوفرها الإسلام لأهل الكتاب. ولم يواجهوا أي مقاومة من الأبياء، بل إن الكثيرين منهم كانوا سعداء بإعطاء أبنائهم إلى نخبة الرقيق البيض الذين يديرون الإمبراطورية. في ظل هذا النظام، يلتحق الذكور بصوف الجيش والخدمة المدنية. فيما تتحق الفتيات بالبحر كجوار، لتحمل السلطين. وكان كل شيء متوقفاً في خصوص مآلاتهم، بما في ذلك الوصول إلى السلطة أو كسب الثروة، وغالبًا ما يستلعبون تحقيقاتهم. وعلى عكس النظام الإقطاعي في أوروبا المسيحية، فإن هذا النظام كان مبنياً على الجدارة، وأقرّز نسلاً متنوعاً، فالسلطان محمد الثاني على سبيل المثال، والذي حكم خلال القرن الخامس عشر، ولعله أعظم الخلفاء العثمانيين، كان ذا بشرة شقران كيشرة أمه، وهي جارية من من الروافد الشمالية الغربية للإمبراطورية العثمانية.

مميزة للذين اشتغلوا كجوار في الماضي في أماكن أخرى في المنطقة. لكن انهيار النظام والقانون وفرا غطاءً إضافياً لعودة الممارسات القديمة؛ وما هي مخيمات اللاجئين السوريين في الأردن تصدر الفتيات إلى بيوت الدعارة في العاصمة، وللرجال الخليجيين من خلال المواقع الإلكترونية التي تعرض عليهم زواجا قصير الأمد مقابل رسوم وساطة تقدر بين 140 و270 دولارا لكلا الطرفين. كما انتعش التهريب عبر موانئ البحر الأبيض المتوسط في ليبيا، التي كانت في ظل الحكم العثماني تصدر العمالة من جنوب الصحراء إلى أوروبا.

قبل وقت طويل من اختطاف جماعة «يوكو حرام» للفتيات، كانت المنظمة الدولية لمناهضة العبودية تحذر من أن رجال الأعمال النيجيريين كانوا يشترون من النيجر خطباء المساجد خلال صلاة الجمعة بشرق قوتو الأربع اللواتي يسمح بهن الإسلام.

تؤكد دول الخليج على أنها بصدد معالجة هذه المشكلة. ففي حزيران الماضي أقر البرلمان الكويتي قانوناً يحفظ لخادمات البيوت حقوق العمالة، وهي الدولة الخليجية الأولى التي أقدمت على هذه الخطوة. كما أنها الدولة الخليجية الوحيدة أيضا التي فتحت ملجأ للمهاجرين الإناث. فيما تعهدت قطر، خوفاً من تأثير الانتهاكات على استضافتها بطولة كأس العالم سنة 2022، بتحسين مساكن المهاجرين. وفي موريتانيا أمرت الحكومة في وقت سابق من هذه السنة خطباء الجمعة بشرق قوتو أصدرها دعاة بارزون في البلاد مفادها أن: «العبودية ليس لها أي سند شرعي في الشريعة». ويخشى المراقبون، مع ذلك، أن يكون هذا مجرد ذرّ للرماد في العيون، خصوصا أن أمير الكويت لم يصادق بعد على القانون الجديد لحقوق العمال.

وبدلا من إيقاف الاعتداءات، يفضل المسؤولون الخليجيون مهاجمة منتقديهم، واتهامهم بالإسلاموفوبيا، تماما كما فعل أسلافهم. وكانت عمان والمملكة العربية السعودية قد أغلقتا أبوابهما – لفترة طويلة – أمام منظمات حقوق الإنسان الغربية التي تجري تفضيات حول معاملة المهاجرين... والأّن فقد حان دور الإمارات العربية المتحدة وقطر، اللتان قررتا منعها بعد الضغط الذي سببته موجة الوفيات في ورش البناء المخصصة لاستضافة نهائيات كأس العالم 2022.

وتعتبر الاحتجاجات الداخلية الأكثر خطورة، أي تلك التي حصلت على مدى السنتين الماضيتين، حيث اعتقل وعُنف ورُحّل المئات من العمال المهاجرين الذين يعملون في بناء متحف «غوغنهايم» و«اللوفر» في أبو ظبي، وفقاً لمنظمة «هيومن رايتس ووتش»، وذلك بعد الاضرابات التي خاضوها بسبب عدم صرف رواتبهم. كما تلقت أميناتو بنت المختار تهديدات بالقتل، وهي من الموريتانيات العرب اللقيات في مجلس إدارة «نجدة العبيد»، وهي جمعية محلية للدفاع عن حقوق «الحراطين»، أو «الخلاسيين» أو «أحفاد العبيد السود».

هل نبال؟ لو رجونا من الدعاة الإسلاميين الذين ينددون بالرق، أن ينددوا أيضا بالحالات الأخرى للأعمال القسرية والتعسفية؟ يتردد الإشهاد والمهاجرون في الخليج في هذا الخصوص. حتى السفارات الأجنبية تلتزم الصمت وتتفادى توجيه انتقادات قد تضع حداً لتدفق التحويلات الموهلة. عندما زار رئيس وزراء الهند «نارندرا مودي»، دولة الإمارات العربية المتحدة منذ أيام معدودة، اشتكى مواطنوه هناك من أن حقوق مهاجري بلاده قد احتلت المرتبة الأخيرة ضمن أجندته. أما الحكومات الغربية فلها في الغالب أولويات أخرى. إحداهما ببساطة، هزم تنظيم «داعش»، الذي يعود إليه، إلى حد كبير، سعيه إلى إحياء العبودية، وإلى نقشي التساهل في التعاطي مع قضية العبودية المحقة في المنطقة.

### «داعش» يتباهى بسبي النساء

ويتباهى «داعش» بسبي النساء الأيزيديات في العراق وبيعهن كالجواري في سوق العبيد، في أكبر عملية استعباد جماعي، ميزرًا ذلك بأنهن «مشركات»، وسببهن «وجه من أوجه الشريعة». التي يصدرها تنظيم «داعش» باللغة الإنكليزية، في عددها الجديد إن النساء الأيزيديات واطفالهن «غنائم حرب» بعد وقوعهم في

